رواية "الخندق العميق"

العمامة تاج العرب!

بقلم غالي شكري

تطور القصة العربية ، لا يمضي في خط مواز لتطور الفن الروائي على الصعيد العالمي . ذلك ان تاريخنا وثقافتنا ، لا يتناسبان طرديا مع التاريخ الاوروبي او الامريكي ، وثقافتهما ..

غاية ما يمكن ان نفيده من الاداب الاجنبية ، هو ان نضع ايدينا على نواميس تطورها ، وقوانين تقدم المجتمعات التي عبرت عنها .

والرواية العربية الحديثة حلقة جديدة في سلسلة طويلة من الاشكال الفنية المتباينة ، التي صورت تاريخنا على مدى العصور . سواء قيس هذا التاريخ على نحو « طولى » ، ام سبرت اغواره في لحظة زمنية قصيرة .

وقد تحررت القصة الاوروبية من عبء التاريخ منذ بداية هذا القرن. اي اننا لا نلحظ في الخمسين عاما الماضية، ميلا غالبا عند الكتاب الاوروبيين لكتابة الرواية التاريخية . في الوقت الذي كان فيه ادباؤنا يولون تاريخنا جل عنايتهم ، احساسا صادقا منهم ، بان هذا التاريخ يجب ان يخلد في قوالب مرنة تختلف عن كتب التاريخ . وتعبيرا مخلصا عن ازمتنا التاريخية في لنصف قرن الاخير ، حين لم نجد الا في ماضينا امجادا يعتد بها ، وتجسيدا لفراغ وجداننا من رابطة روحية وثيقة بارضنا الاجتماعية، حيث اغمضت عيوننا عدة ظروف مريرة قاسية ، عن ان ترى في وجودنا الانساني الراهن خامة غنية لادبنا . ومن ثم اصبح المفهوم السائد للرواية التاريخية هو ان نبحث في بطون الكتب عن حادثة شيقة ، او فضيحة مثيرة ، او نبأ غريب . فحين قلت ان اوروبا تخلصت من التاريخ قصدت انها القت بذلك المفهوم التقليدي وراء ظهرها، واخذت تنسج اياتها الفنية من حاضرها ومشكلاتها المعاصرة . غير ان هذا لا يعد سبقا فنيا ، الا اذا عددناه سبقا تاريخيا زمنيا .

وقد تقلصت محاولات الادب العربي الحديث في اجترار حوادث التاريخ القديم ، اي انها بدات تتحرر من المعنى الكلاسي للرواية التاريخية. وبدات في نفس الوقت عنايتها بتاريخنا الحديث .. اما بتصوير مراحل تطوره عبر الزمن ، واما بالتعبير عن قطاعات عريضة وجوانب معمقة ، في مجرى زمني قصير .

على اية حال ، اذا اردنا ان نميز بين الفنان الذي يؤرخ لمجتمعه احدى مراحل تاريخه ، والفنان الذي يقتصر في تعبيره عن المجتمع على لحظته الحضارية الموقوتة ، بموقف انساني خاص ... يجب ان نعي ان ادبنا في حاجة ماسة الى كليهما معا ..

وفي الادب العربي الحديث ، محاولات ناجحة من كلا الجانبين . واحدى هذه المحاولات هي رواية « الخندق الغميق » للدكتور سهيل ادريس .. قدمها نموذجا جديدا للفن الذي يؤرخ مراحل التطور الاجتماعي في قطاع بشري خاص .

ورغم ان المجتمع شيء موضوعي تماما ، الا ان انعكاس قيمه ومثله وتطوره ، على وحدة اجتماعية صغيرة ـ اسرة مثلا ـ هو ما يستهدفه الفنان الصادق ، اذا اراد ان يعرض مفهومه الخاص عن الحياة .

ومن هنا قيمة التجربة الذاتية حين تصبح تجسيدا واعيا ، لكافة الظروف المحيطة بالواقع النابعة منه ، والذي هو بدوره نتاج طبيعي للواقع الاشمل ... اي المجتمع الانساني باسره .

و « الخندق الغميق » هو حي في لبنان اختلف الناس في تبرير تسميته ـ وفيه تسكن اسرة يعمل رب البيت فيها بالتجارة . ولذا كانت « ندوة البساط » الشهرية للمشايخ ، من اقدس واجباته ، لتزداد تجارته عمرانا ، ثم لكونه هو ايضا ... شيخا ـ شيخا يمثل جيلا كاملا، تبلورت في جبته وعمامته كافة القيم والمثل التي كانت ـ فيما مضى ـ افرازا حتميا لمرحلة تاريخية سابقة ، والتي تحاول ان تكون « تتويجا » لكافة القيم الانسانية ، بان تعترض كل ما يحاوله الجيل الجديد من خطوات جديدة .

والجيل الجديد اذن ، هو ابناء الشيخ ، الذين نشأوا في احضان الاسرة حقا ، ولكنهم عايشوا ـ في نفس الوقت ـ خلخلة في القيم الجامدة التي يتشبث بها عاهل الاسرة ، والتي هي تعبير عن خلخلة النظام الاجتماعي القديم ، الذي تكون في ظروف مرحلة تاريخية مضت .

والقصة هي تصوير الصراع بين هذين الجيلين ، لينتهي بانتصار هاسم للجيل الجديد الناشيء ، وقيمه ، ومثله .

*

وهكذا نعثر في بداية جولتنا مع الفنان على « الحدث الروائي » الذي تنمو به الاحداث نموا حيا متطورا ، من شأنه ان يساعد على خلق بناء درامي متكامل . وهذا ما انتقدته عند سهيل ادريس في روايته « الحي اللاتيني » . فقد خلت من نقطة الانطلاق هذه . اعني « الحدث الروائي Novel-action رغم تزاحمها بالاحداث Events وهذا ما حال بينها وبين تكامل البناء الدرامي على النحو الفني الصحيح .

اما في « الخندق الغميق » فاننا نرافق هذا الحدث منذ تابطنا الفنان في رحلة الصبي الصغير « سامي » الذي تجسدت فيه الام جيل واحلامه، هزائمه وانتصاراته ... منذ كان يصر على الجلوس بين المشايخ وهم يرتلون الذكر ، ليأكل « على راحته » ، وليدندن بصوته الجميل الذي يذوب بين اصواتهم العالية الخشنة فلا يبدو ما في كلامه من اخطاء.

كانت الظروف المحيطة بـ « سامي » كلها ، تهيئه لان يصبح شيخا . واريد ان اقف عند هذه النقطة ، لاننا كثيرا ما نهمل التأمل في الاحداث الواقعية التي ربما كانت رموزا لواقع اكثر عمقا .

فانني ارى ـ مثلا ـ ان الشيخ « ابا سامي » الذي يمثل جيلا كاملا ،

يريد ان تتجمد كافة القيم والفكريات التي يعبر عنها ، بان يصبح ابنه ـ اي الجيل الذي يليه ـ امتدادا جامدا لنفس القيم والمثليات بمعنى ان الجيل القديم يحصن مستقبله ، بان يستودع مثالياته قلوب الجيل السابق ، وانما يبقى « شكلا » حديثا لمضمون « الجيل القديم » . ومن هنا « ينشب الامس اظافره في يومنا نحن » (١) وليست عملية «التحصين المستقبلي » هذه ، الا دفاعا واعيا عن بقاء النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي افرز الشيخ « ابا سامي » وجبته ، وعمامته . وقد كانت مقومات النظام ودعائمه في خدمة هذا الدفاع . فحين دخل « سامي » المعهد الديني ، ولبس الجبة والعمامه ـ فاصبح تعبيرا مؤقتا عن سلطة الجيل القديم ـ فانه ذات يوم ص ٣٩ « وكان لم يتجاوز الزقاق المؤدي الى بيتهم حين رأته جارة لهم ، كانوا يدخلون حديقتها ، هو ورفاقه ، كلما عطشوا ، فيشربون من انبوب يصب في برميل هناك . وكانت الجارة واقفة على الباب الخارجي حين مر بها ، فاذا هي تطلق صرخة استغراب صغيرة، ولكنها ، ما تلبث ان تقول :

ـ اسم الله عليك يا سامي! لقد اصبحت شيخا ؟ انظروا : ان نور الجنة مسطر على جبينه !

فابتسم ، ولم يلتفت اليها . وحين ابتعد قليلا ، وضع يده على جبينه ، يتحسس هذا النور »

اما قريبه الثرى ، حين سمعه يرتل القرآن ، فقد اهداه ، قلما مذهبا ثمينا. وهكذا، فالظروف جميعها تدفع الطفل الى ادخال جسمه في الجبة، ورأسه في العمامة .

ولا شك ان هذه الظروف جميعها التي اوردها الفنان « رمزية » بمعنى انها تعبير فقط عن الظروف الموضوعية الكبيرة المحيطة بالجيل كله . وما « الطفل » نفسه ، وجبته وعمامته ، الا رموز » صغيرة .

ولكن هذه الظروف ليست « متجانسة » ، وانما تحتوي في صميمها على « تناقضات » خفية . تبدو اول الامر ، وكانها « ظواهر » طارئة ، ولكن تفاعل الاحداث يوميء باهمية هذه الظواهر ، وخطورتها في المستقبل.

واذا عدنا الى الشيخ سامي ، يوم ان امره رئيس المعهد ـ هو وزملاؤه ـ بحلاقة رؤوسهم وارخاء ذقونهم ، فاننا نكتشف ان اثنين فقط ، اطاعا الامر ، بينما عصى الجميع امر رئيسهم بشأن حلاقة الرأس . وان كل بعضهم قد ارخى ذقنه ... الا ان سامي ـ وشعر ذقنه لم يظهر في وجهه الطفل بعد ـ اخذ عقابه مضاعفا ، وتساءل ص ٣٧ « لماذا نال كل زميل من زملائه عصا واحدة ، وهو عصوين ؟ وهل يكون الذنب ذنبه ، اذا لم تظهر ذقنه بعد . ثم تأخذه الثورة فجأة ، فيتحسس موضع الضربة من رأسه ، ولا تهدأ نفسه قليلا الا بعد ان يشتم لحية الرئيس».

واذا توغلنا الى مضمون الجبة والعمامة ، فانا نزداد وعيا بهذه الظواهر المتناقضة . فدرس « الحديث » ص ٤٤ « كان يقذفهم في حيرة وتململ شديدين . ذلك ان المدرس ابلغهم اول الامر ان هناك ما يزيد على ثلثمائة الف حديث منسوبة الى النبي وهي زائفة ، وانه لن يدرسهم الا الاحاديث الصحيحة ، ولكنه مع ذلك كان يأتيهم كثيرا بما يشبه الخرافات على انها من صحيح الحديث ، وكان يشرحها لهم شرحا غريبا ، لا يطمئنون اليه ، ولا يثقون به . وقد شك احد الطلاب يوما بحديث اورده لهم هذا المدرس الشيخ،وعبر عن شكه امامه، فاذا به يغضب ويثور، ثم يروي لهم، ان رجلا شك في حديث ينوي يقول (اذ قام احدكم من النوم فليغسل يده ، فانه لا يدري اين باتت يده) ، واضاف المدرس ، ان هذا الرجل الذي شك بهذا الحديث سخر من مضمونه واخذ يتساءل : (اين يمكن ان تبيت يدي ؟ انها الى جانبي!). قال الاستاذ الشيخ : وحين نهض الرجل في اليوم التالي ، وجد يده داخلة حتى المرفق في استه .. واضطر الطبيب الى قطع يده ! وعلق مدرس الحديث على ذلك بقوله : فلا تشكو يا ابنائي باقوال الرسول ... »

وقد برع المؤلف في التوفيق بين « تناقض » هذه المظاهر ، والنتيجة الحتمية ـ المتناقضة ـ لهذا التكوين النفسي والاجتماعي .

فالشيخ سامي ، يؤدي الفرائض الدينية في اوقاتها . ولا ينسى ان يزور السينما مع رفاقه الذين يتمادون في غيهم حين ينحرفون الى زقاق معتم مجاور للسينما ، لا يعرف هو تماما : ماذا يوجد او يحدث هناك (ص ٥٤)

واذا كان المضمون الانساني لاعمالنا اليومية يفرض شكله المناسب ، فان الجبة والعمامة لا مكان لهما في السينما (ص ٥٣) . والصلاة والصوم لا يمنعانه من «الكذب» عند اللزوم. فاذا سأله ابوه الى اين هوذاهب،كان الجواب انه مدعو الى سهرة مع زملائه لتلاوة القرآن .

هذه التناقضات الثانوية الصغيرة التي اسهمت في بناء الصبي ، كانت في تفتح دائم الحدة والوضوح . الاب في البيت يحدثه بلهجة جافة ص ٧٨ :

ـ انني امنعك على كل حال من مجادلتي .. لقد اصبحت وقحا بالفعل !

نفس الكلمات التي سمعها من رئيس المعهد .. وهكذا فالبيت والمعهد، كلاهما في وفاق ... اي ان رسالتهما واحدة : تجميد القيم الهرمة ، بكظم اية انطلاقة من الصدور الجديدة النامية .

ولكن هذا كله ، لا يسد على الانطلاقة الوافدة طريقها ، اذ سرعان ما يجيب سامي (ص ٧٨) :

ـ لا .. لست بالوقح .. كل ما هنالك انني اخالفك بالرأي !

ومن هذا الموقف يتضح الصراع جليا واضحا ، فبعدما كانت نقائض الحياة والمجتمع تصطرع بين اضلع سامي في خفوت هامس ، اصبح مضطرا ، لان يفصح عن حقيقة ما يمور بداخله .. هذا الذي اوشك على ان يبدو معركة سافرة بين جيلين .

وقد كان « الحب » هو الثقاب الذي اشعل المعركة . ذلك الحب الذي يلتهب في وقدة الكبت والحرمان ... فاذا هو تعبير عن « نار الجنس » التي اخفت لهبها جدران التقاليد ، دون ان تطفئها .

والجيل الذي مثله « سامي » واخوته ، هو جيل « ضحية » . فالعواطف البشرية لا تنمو في وجدانه صحيحة صادقة ، لانها لا تجد ظروفا نقية طبيعية تسمح بالنمو الطبيعي غير المنحرف . فسامي لم « يصادق » سميا ، لم يقربها قربا حقيقيا ... وانما « ابنة الجيران » التي فوجيء جسده بقربها . واذا العاطفة النامية بينهما هي تحرق الجسد الظامىء الى الجنس ، وليست تحرق العقل التواق الى المعرفة الحميمة ، بالصديق الاخر .

والقيم المعباة في العمامة ، تحول دون هذا الحب ... و « سميا » تقولها صريحة مخلصة (ص ٧١) :

ـ ارجوك ... لا تذهب معي ... انت شيخ

اما ابوه ، فقد احس زلزالا يخلع اساس البيت حين سمع الخبر ، ومن ثم يزجره بعنف (ص ٧٧) :

ـ بلى ! انه لا يليق بك ، انت الشيخ ابن الشيخ ، ان تتبادل الرسائل

(١) محيي الدين محمد ـ الاداب ـ يوليو ١٩٥٩

حتى تشرق الشمس

« الى الشاعر احمد عبد المعطي حجازي »

هي بضع ساعاتٍ
ـ ملعونة كالدمَّ ـ ساعات ـ
سودٍ كمأساة
وتطل من خلف القصور كئيبة
صفرا كفاتنتي
كعظام اموات ...
فأهدأ هنـا
في صدريَ العاري
ياايها الضاري
اهدأ هنا ... في صدري العاري
ستظل باردة كمقبرة ،
كرماد اجنحتي
وتجف أطماري ..
آه لنـا
مانفعه هذا الهوى المشبوب كالنار
كالضوء فـي اجفان مغوار
ونشيد جزار ،
مانفعه .. . ورياح موعدنا
تجثو هناك ... وراء اسوار
عرجاء باكية
كالنجم في افق من العار
في قلب احجار
ما نفعه وانا
اتشرب الساعات والصمتا ،
اتشرب الموتـا ،
ارنو لاطماري ...
مانفعه ...
والشمس لم تشرق على داري ؟...

قطـر **حسن النجمي**

ألفرامية مع ابنة الجيران !

وناظر المعهد الديني ايضا ، له رأي في القصة (ص ٩٨) :

ـ ان الطلاب هنا للدراسة ، لحفظ القرآن والحديث والفقه ، لا للخفة والطيش والحب !

ولكن سامي لم يعد ذلك « الفـر » الذي ينهكه الصراع الداخليالمر، دون ان يملك « بوصلة » موجهة لهذا الصراع . فهو يدرس اللغـة الفرنسية ، ويقول لحبيبته انه « شيخ مودرن » ص ٧٤ ، ويتحدى اباه صارخا (ص ٧٧) :

ـ ان الله لم يخلق المشايخ بلا قلوب !

وينكب على الدراسة المدنية في المنزل ، ثم ينال « البكالوريا » ... وتتبلور معالمه الايجابية حين ينزع الجبة والعمامة !!

فاذا اعتلت وجه ابيه سمات الجزع والمفاجأة ، قابله في شجاعة ص ١١٩ :

ـ ان هذا امر لا يعنيك !!

فيكون نصيبه صفعتان لاهبتان ، وتروى لنا الابنة «هدى » ان اباها امسك بعمة ابنه ص ١٢٢ « .. وحاول ان يضعها على رأس سامي كرها وقسرا . وكان وجه أخي قد احتقن بالدم من اثر الصفعتين ، ومن غضب وحشيكان قد استبد برأسه لحظة، ولكنهاتين اليدينالكبيرتين الضخمتين تغلبانه على امره ، ثم ترتفعان بصفعتين اخريين اعنف واقسى .. واذ ذاك سمعنا صرخة توجع واستنكار تند من فم سامي ، ورأيناه يتراجع الى خلف ، ثم يتناول العمة التي كانت قد استقرت على راسه ، ويقذف بها ارضا ، بكل ما ملكت قواه ، ثم لا يكتفي بذلك ، بل ينحني فيأخذهـا عن الارض ، ويحل المنديل عن الطربوش بسرعة فائقة ، ويحاول ان يمزق ألمنديل بيديه ، فيعجزه ذلك ، فاذا هو يتناوله بين اسنانه ويعمـل فيه تمزيقا وتقطيعا ، وقد احمرت عيناه ، وانبعث منهما شرر حيـواني غريب » .

وهذه قمة الصراع الحادة في الحدث الدرامي .. ورغم ان « الرمز » يلعب هنا دورا كبيرا ، فانه لا يتعالى فوق المستوى الادراكي للقاريء.

وازمة اللقاء الحاسم بين النقيضين ، تولد دائما تلك الشرارة الجديدة، التي تصهر الشكل الاجتماعي للتجربة ألانسانية . فبينما ينتصر النقيض الجديد النامي ، نكتشف نقيضا جديدا ـ في نفس اللحظة ـ يتولد على الخط الرئيسي للحدث ، وتتوالد نقائض ثانوية صغيرة .... ويتمدد الصرأع من جديد .

وحين خلع سامي عمامته ، فانه كان على وعي تام ، بان القيم الفكرية التي يتضمنها نسيج العمامة ، لم تعد بقادرة على ان تساير المجتمـع الجديد البازغ . فقول ابيه «العمامة تاج ألعرب» هي كلمات صادقة في تعبيرها عن مرحلة متخلفة من تاريخ العرب .

ونقطة التحول في حياة هذه الاسرة ، هي انعكاس امين لنقطة التحول التي أجتازها المجتمع العربي في لبنان ، بعد الحرب العالمية الاخيرة .

وآثار هذه المرحلة العصيبة على الاسرة ترمز الى آثارها على طبقـة اجتماعية معينة في القطاع العربي ، بصفة عامة ، فرغم ان دخلها يتقلص شهرا بعد شهر ، الا ان ربها « يرفض ان يعترف بان عهد الرخـاء قـد

زال ، وانه يوشك ان يؤول الى الفقر . ان الله يرزق ، ما دام هـــذا البساط يعقب دائما ليلة ذكر فيها اسم الله كثيرا » ص ١٢٥

اما «سميا» فقد نزحت الى القاهرة ، حيث تزوجت ابن عمها ص ١٣٠ « ودخلت المجتمع الارستقراطي ، واصبح لها فيه مركز مرموق » ـ وحـين تلتقي بسامي ـ بعد سنوات ثلاث ـ تقول له « تذكرتك ، وانا اقـــرأ اسمك في احدى الصحف في برنامج اذاعة اليوم ، فقلت لا بد ان اراك.. انك على الاقل صديق قديم » .

ولا تقتله المفاجأة ، وانما تزود فراغه العاطفي بطاقة ضخمة من العمل، والكد ، والمثابرة ، انه يعبر مرة اخرى ـ عن هذا الجيل « الضحية » الذي تمزقت حناياه تحت وطأة الفصل الحاد ، او النقلة التاريخيـة من المجتمع المنتفخ المغلق ، الى مجتمع الرشد .

ولا تلبث هذه الايجابية الرائعة ، ان تتجسد في العلاقة الجديدة بين رفيق ـ زميل سامي ـ وهدى . فقد تحول سامي ، ذلك الشيخ المعمم ، الى شاب يعي في عمق ، مدى ما يعتلج في صدر شقيقته نحو صديقه « رفيق » ، ومن ثم يقف حائلا بين اظافر الجيل القديم متمثلا في سلطان الاب ، وبين مستقبل هذه العاطفة الوليدة . وهكذا يفسح لهما فرصة التجاوب الصادق الحر ، حتى يتأكد من عاطفتهما ، ويبدأ في ثقة واخلاص، بناء عش الاحلام . حتى اذا اعتاقت سبيلهما العوائق ، كانا على موعد جاد مع الزحف السريع الى الغد الافضل .

وكان لا بد من هذه العوقات ، فالاب ـ والاب دائما ـ يقف سـدا منيعا في وجه هذا الغد حين يقول ص ١٤٦ « ... ولهذا فقد قررت ان تنقطعي عـن المدرسة التي تعلمك الفساد ، وأنا امنعك منذ اليوم عن ارتياد هذه المدرسة ، ولن ادفع لك الاقساط بعد الان »

ولكن الجيل الصاعد لن يقف ... لن يتردد سامي في ان يقول : « انك تستطيع الا تدفع الاقساط .. ولكني اؤكد لك انها لن تنقطع عن المدرسة».

لقد افلت الزمام نهائيا من مركز القيادة ، ولا بد ان تحدث «الخلخلة» التاريخية ، بين تداعي الاساس القديم ، وقيام البناء الجديد . وبـدت هذه الخلخلة واضحة، عندما اهتزت المعايير الاخلاقية في الاسرة ، فالاب الشيخ يعادي سامي وهدى ، لانه « ليس هناك من صالح الا فوزي ، رضى الله عنه ... انه على الاقل يساعدني في الانفاق على البيت ، ويتحمل نصيبه من المصروف » ص ١٥٦ . بينما هو الابن الصالح ، قال اشياء كثيرة اثناء نومه ، الليلة الماضية ، وكان فمه يفوح برائحة الخمر .. قال ص ١٥٨ « اسمعي يا حبيبتي ... انت امرأة داعرة ... جانيـت خير منك .. انها ترقص رقصا رائعا .. وجسدها حار ... وعفاف خير منكما ، انها اكبر داعرة في الدنيا .. هاتي شفتيك ايتها ... لا .. اسمعي .. اعطيني الكأس ... خذه ! هذه عشر ليرات .. ساعطيك كثيرا غيـرها ...! اغلقي الان فمك .»

وبدا هذا الاختلال ايضا في العلاقات بين افراد العائلة . فقد صاح سامي بامه يقول ص ٨٠ « دعوني وشأني ... فانه لا علاقة لاحد باموري الخاصة » ... وفوزي اجابها مرة أخرى ص ١٥٧ « ان هذه امور لا تعنيك ... وخير لك ان تعودي الى مكانك الطبيعي : المطبخ ! » . والاب الشيخ نفسه ، حين اعلن زواجه الثاني ، اخذ يهددها بقبضة يده ، وهو يكز على اسنانه قائلا ١٦٧ « آن لك ان تخرسي.. لقد قلت لك انـه لا دخل للاولاد .. لا دخل للاولاد بذلك !! ان هذه قضية تعنيني ... تعنيني وحدي » .. فهذه الفردية الحاسمة التي تفشت بين الجميـع فجأة هي المظهر الانحلالي للاسرة ... او الانفصال الروحي بين افرادها .. وهو الانفصال التاريخي بين جيلين ، تأثرت بهزته الاسس البنائية للمجتمع الجديد . اذ كان لا بد لهذه الوحدة ان تنفصم لتستعيد صياغتها على نحو مغاير للمجتمع القديم .

وعندما تقف هدى عند باب قاعة الامتحان ، يصافحها سامي بحرارة قائلا ص ١٧٩ « لا تتراجعي يا هدى .. انك بحاجة الى ان تنظري امامك جليا واضحا ... وينبغي الا تكون على عينيك غشاوة » . وفهمت سريعا ما كان يرمي اليه ، فمدت يدها ، ونزعت عن راسها ووجهها الحجاب ، ثم سلمته اياه .. فتناوله على مهل ، واخذ يطويه ، ثم نظر اليها مبتسمـا وقال : اتعرفين عمامتي ؟... انه يذكرني بها !

وسقطت القاعة الاخيرة ... ورفع رب البيت يده الى السماء مستنجدا ص ١٧٧ « اللهم غفرانك ورحمتك .. انني اعوذ بك من هذا الجيل ، وابرأ من هذه الاسرة الفاسدة » .

ويبدو ان السماء ، فهمت دعاءه بشكل مختلف ، فما لبث ان اصيب بالشلل ومات . بينما خطبت هدى الى حبيبها رفيق ، وتوجه سـامي شطر باريس ليكمل دراسته . وانشد الجيل المتوثب اغنية النصر ، فليس موت الشيخ ، الا جنازة حقيقية شيعت بها قيما ادت دورها ومضت.

*

وليس شك ان الدكتور سهيل ادريس ، قدم لنا عرضا فنيا دقيقـا لعملية « المخاض » الاجتماعية ، التي عاناها ابناء جيله .. وقد استغل تجربته الذاتية استغلالا موضوعيا .. بمعنى انه كان يرى الاحداث النابعة من دائرته الخاصة بعدسة موضوعية . ومن ثم رأينا شخوصه جميعـا من خلال ذواتهم الحقيقية ، لا من وراء نظارته الشخصية ، وربما جـاء التركيز الدقيق في عرض التجربة ، نتيجة طبيعية لابراز المحتوى الانساني للقصة ، دون اللجوء الى هوامش الحدث الروائي . ومن هنا بـرزت العلاقة الطبيعية بين الشخوص في جو سيكلوجي ناجح، وتناسقت الابعاد الزمانية والمكانية لدرجة اوحت ـ على الدوام ـ بصـدق التصوير وطبيعية السيرا لدرامي للحوادث . وقد صور المحتوي الفكرى للرواية ـ منذ البدء ـ اطاره العام ، فاذا طريقة العرض والتناول لا تعتمـد اسلوبا هلاميا ضبابيا في تغليف المواقف الانسانية .. وانما غلفت بلغـة سليمة واضحة .

غير أن هذا البنيان الناجح قد تأثر ـ وتصدع ـ حين عزل الكاتـب البناء الاقتصادي والاجتماعي للاسرة ، عن « الفرشة » الاجتماعيـة الاقتصادية ، للمجتمع اللبناني. ولذا لم احس في حي «الخندق الغميق» والجبل ، والمعهد الديني ، وبيوت الاصدقاء ، بالرائحة المميزة لهـذا المجتمع . ذلك ان المؤلف قد اهمل همزات الوصل الحيـة بـين طبقـات المجتمع ، واغفل ـ بالتالي ـ ما بينها من تشابك عضوي ، لا ريب انـه قائم بالفعل ، خلال الحركة الدينامية في داخل هذا المجتمع .

ولست اطلب من سهيل ادريس موقفا فلسفيا خاصا في نظرته للحياة. لانه ـ لا شك ـ صاحب موقف ما ، سيطر على عمله الفني بوعي او دون وعي. وربما كان هذا الموقف ـ او المنهج ـ هو السبب في عزلته عـن الواقع الانساني المحيط به . فالاحداث الاولية في القصة وقعت فـي الفترة ما بين الحربين .. وهي فترة خصبة مليئة بالتغيرات الجسام ، التي كان لها انعكاس واضح على المنطقة العربية . ولكنا لم نشهد لهـذا الانعكاس اية اثار على الارض الاجتماعية في البناء الروائي « للخنـدق الغميق » . وهكذا بدت بعض المواقف الانسانية باردة من حرارة التلوين التاريخي للتجربة . فعندما اراد القصاص ان يؤرخ لمرحلة معينة في

الرواية ، اكتفى بان يحيطنا علما بان الحرب العالمية الثانية كانت قد اعلنت منذ ثلاثة ايام (ص ٩٤) وتلت ذلك احداث كثيرة ، لم تنعكس اثارها على الاسرة الا في اضيق نطاق . وقد تخلف عن هذا المنهج غير المتكامل ان تعرض التصوير الموضوعي لخيوط التجربة ، لعدة اهتزازات. فالتحرر الذي اصاب سامي يتطرف به في وساطته بين رفيق وهدى الى حدود غير معقولة . ثم ان التجسيد الفكري لبعض الشخوص ـ كرفيق مثلا ـ لم يكن واضحا ، حتى يمكننا ان نقتنع بسلوكهم الخاص ، وربما كان ذلك نتيجة طبيعية لمنهج المؤلف في التحليل النفسي. حيث انه لم ير في التشريح السيكلوجي من خلال التفاعل الدرامي ، منهجا سليما في تسليط الضوء على شخوصه من الداخل والخارج . ومن ثم بدا بعضهم باهتا تكاد ملامحه لا تبين .

وعندما اراد المؤلف ان ينفذ بقارئه الى موقف ما ، وارتأى ان الراوي بضمير الغائب لن يتمكن من هذا النفاذ .. اسند دفة الرواية الى لسان « هدى » لانها اقرب الشخوص الى تبيان ذلك الموقف .

واعتقد ان الكتاب الاوروبيين ، والذين كانوا ينهجون في كتابة رواياتهم هذا النهج ، بان يروى القصة القصيرة الطويلة ، اكثر من شخصية في العمل الفني ... اعتقد ان الامر عندهم لم يكن مجرد « تغيير وجوه » في طريقة تناول الحدث .. وانما كانت الضرورة الفنية ، هي التي تحدد ذلك الشكل ، بما يتناسب مع المحتوي الانساني للعمل الفني . ولم ار في « الخندق الغميق » ما يبرر هذه الوسيلة ، بل انها في بعض الاحيان، تحولت الى « عائق » سيكلوجي عند المتلقي .

*

غير ان كل ما يعترض طريقنا من عوائق ، ذاب تماما في حرارة النبضات القوية التي خفقت بها صدور سامي وهدى ورفيق .. والقراء ايضا ، لان انتصار هؤلاء الثلاثة ، لم يكن انتصارا شخصيا ، وانما كان انتصارا موضوعيا لجيل كامل .

هذا الجيل الذي عبر عنه ـ بغير وعي ـ تعبيرا سلبيا ، احد شيوخ المعهد الديني ، حين اقبل اليوم الذي سيرتدي فيه سامي ، الجبة والعمامة ص ٢٩ « وتقدم بخطى ثقيلة نحو الخياط الذي وجد له جبته بسرعة ، فالبسه اياها ، ولكنه لم يقل له ، كما قال للذين سبقوه « مبروك يا مولانا » بل قال له « اسم الله عليك » فابتسم له بسذاجة ، وتقدم من مدرس التفسير وبسط له طربوشه ، فأخذ يلف عليه العمامة . ولكنه لم يكد يفرغ من لفها ، حتى انفرطت بين يديه ، فتأفف قليلا ، وعاد الى ادارتها على الطربوش من جديد . غير انها ما لبثت ان انفرطت مرة اخرى لسبب لم يفهمه هو ، ولم يفهمه المدرس الذي التفت اليه ، وقال له بهدوء :

ـ انت منحوس ... ستكون شيخا منحوسا .

فلم يدرك كيف يكون الشيخ المنحوس ، ولم يهتم كثيرا بهذا القول ، فقد كان نافد الصبر يود ان يفرغ المدرس من لف العمامة »

ولو رأى مدرس التفسير « سامي » هذه الايام ، لضحك كثيرا وهو يرى رأسه عاريا ، فقد صدقت نظرته ، و « نحس الولد » .. ولكن هذه الضحكة ستموت ، حين يرى في وجه سامي شيئا يقول : كلا .. ان العمامة ليست تاج العرب ... وانما هو التطور ... تاج العرب .. والبشر جميعا .

القاهرة — غالي شكري

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت شارع سوريا ص.ب. ٣١٧٦ تلفون ٢٧٩٨٣

تاريخ العلامة

ابن خلدون

يسر دار الكتاب اللبناني ان تزف البشرى الهامة الى جميع وزارات التربية والتعليم وجميع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية :

انها تعلن عن قرب انتهاء طبع الموسوعة الكبرى للعلامة ابن خلدون ، وقد انتهت الان من طبع المجلد السادس ، وقريبا جدا ينتهي طبع المجلد السابع .

ان دارنا اذ تلفت انظار جميع هذه المؤسسات وجميع الادباء والعلماء في الاقطار العربية ان ثمن المجموعة الان مئة وعشر ليرات لبنانية تحث من يهمه امر اقتناء هذه الموسوعة على الاسراع بحجز مجموعته ، اما عن طريق الناشر رأسا او بواسطة المكتبات الكبرى في العالم العربي ، مع العلم بان ثمن المجموعة الكاملة سوف يصبح عند انتهاء الطبع ، اي بعد مضي ثلاثة اشهر مئتين وعشرين ليرة لبنانية .

هذا وقد صدر حتى الان ثلاثون جزءا ، ولم يبق الا ثلاثة اجزاء فقط ، ونلفت نظركم ايضا الى الفهارس العلمية الهامة والى ان النسخ محدودة .

فبادروا الى اقتناء نسخكم .